بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة إبراهيم -عليه السلام- وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} [(١-٣) سورة إبراهيم].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، {لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [(٢٥٧) سورة البقرة] الآية. وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [(٩) سورة الحديد] الآية.

وقوله: {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم، {إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ} أي: العزيز الذين لا يمانَع ولا يغالَب، بل هو القاهر لكل ما سواه، {الْحَمِيدِ} أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره. وقوله: {اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(٢) سورة إبراهيم] قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٥٨) سورة الأعراف] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [(١) سورة إبراهيم] ما يحصل على يد النبي -صلى الله عليه وسلم- من هداية الإرشاد إنما يكون ذلك واقعاً بإذن الله -تبارك وتعالى- فالله هو الذي أمره بذلك، وما يحصل للقلوب من الهداية والتوفيق فإن ذلك لا يكون إلا بإذن الله -تبارك وتعالى- فلا يهتدي أحد إلا أن يكون الله -تبارك وتعالى- قد كتب له الهدى؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [(٥٦) سورة القصص]، فلا يحصل من النبي –صلى الله عليه وسلم– هداية التوفيق، وإنما الذي يحصل منه هو هداية الإرشاد، قال –تبارك وتعالى- {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٢) سورة الشورى].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله -تبارك وتعالى-: {اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [(٢) سورة إبراهيم]، قرأ الجمهور{اللّهِ} بالجر، ويعرب لفظ الجلالة هنا عطف بيان لما قبله.

وقرأ نافع وابن عامر بالرفع {اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}، ويمكن أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ولا إشكال على القراءتين، إلا أن البعض قد يتساءل، ويقول: إن لفظ الجلالة يأتي أولاً وتأتي باقي الأسماء معطوفة عليه أو بعده من غير عطف، فالله هو العزيز الجبار الرحمن الرحيم المتكبر، ولا تقول: المتكبر الرحمن الرحيم الله العزيز الحكيم؛ وذلك أنه أعرف المعارف، كما قال سيبويه -رحمه الله- وقد قيل: إنه رُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، أو قال: أدخلني الجنة بقولي: إن اسمه "الله" أعرف المعارف.

وجواب ذلك: أنه لا بأس أن يأتي لفظ الجلالة بعد الأسماء إذا لوحظ المعنى فيُذكر اسم قبله على سبيل العلمية مع تضمنه للصفة، ثم يُذكر بعد ذلك ما بعده من الأسماء، ومنها لفظ الجلالة "الله".

وقوله: {وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم {يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة} أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم، {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وهي اتباع الرسل، {وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً} أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم -والحالة هذه- صلاح.

قوله: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي عن اتباع الرسل، يصدون عن اتباعهم، والفعل "صدَّ" يأتي لازماً ويأتي متعدياً، ويمكن أن يحمل على المعنيين هنا، فهم يصدون أنفسهم عن اتباع الرسل، ويصدون غيرهم.

قال: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً} أي: يحبون ويريدون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة على أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [(٩) سورة القلم]، {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً} [(٧٣) سورة الإسراء].

قوله – تبارك وتعالى -: {وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [(٤) سورة إبراهيم].

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، وقوله: {فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء} [(٤) سورة إبراهيم] أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، {وَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، {الْحَكِيمُ} في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[1]. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف].

قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} هذه الآية تتحدث عن الأنبياء السابقين، فكل نبي بعث بلغة قومه، وليست هذه الآية تتحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه قد بعث إلى الناس عامة على مختلف لغاتهم.

ومن أهل العلم من يقول: {إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} والنبي -صلى الله عليه وسلم- من العرب، وجاء إليهم وامتن الله -عز وجل- عليهم بهذا: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة]، فكانت أول دعوته -عليه الصلاة والسلام- في العرب .

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [(٥) سورة إبراهيم].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: هي التسع الآيات، {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ} أي: أمرناه قائلين له: {أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ} أي: بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ} أيام الله هي الأيادي، وفسرها بعض أهل العلم بالنقم، وهذا هو اختيار ابن كثير وابن جرير، وقد قال به جماعة من السلف.

ومن أهل العلم من عمم الآية لتشمل النوعين، فنعمه -تبارك وتعالى- ونقمه هي في أيام الله، والأيام ظرف فعبر بها عن النعم والنقم، كما يقول الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا} [(٤٨) سورة البقرة] واليوم لا يُتقَى، والمقصود اتقوا أهوال يوم.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: وقد فسرت أيام الله بنعمه وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي، فالأول: تفسير ابن عباس وأبي بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، والثاني: تفسير مقاتل، والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أياماً؛ لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس، أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١١١) سورة يوسف] ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة

---

[1] - رواه البخاري، كتاب التيمم (١ / ١٢٨)، برقم (٣٢٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١ / ٣٧٠)، برقم (٥٢١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبرة معه ألبتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فَأَرَتْه نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنّى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة[٢].

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة {لِّكُلِّ صَبَّارٍ} أي: في الضراء {شَكُورٍ} أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له))[٣].

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [(٦-٨) سورة إبراهيم].

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: {وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل {بَلاءٌ} أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(١٦٨) سورة الأعراف].

قوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}** [(٦) سورة إبراهيم]، معنى **{مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}**، أي: من فرعون، ويمكن أن يكون المعنى، أي: من فرعون وملئه.

وقوله **{يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}** أصل السوم هو الذهاب في طلب الشيء، ومنه السائمة تذهب في طلب الكلأ والعشب، المعنى أي: يبغونكم، ثم فسر هذا العذاب، فقال: **{وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}**، والواو في قوله: **{وَيُذَبِّحُونَ}** ليست مقتضية للمغايرة، وإنما ذكر ذلك من جملة العذاب الواقع بهم، وهذا وجه حسن وتفسره آية البقرة، قال -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}** [(٤٩) سورة البقرة].

وتذبيح الأولاد واضح أنه عذاب، وقوله: **{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}**، أي: يتركونهن أحياء، وذكر استحياء البنات من جملة العذاب الذي قرنه الله -عز وجل- بتذبيح الأولاد؛ لكونه أشد من التذبيح، فالبنت ضعيفة وعورة، وكان العرب في الجاهلية يدفنون بناتهم خوفاً من العار.

---

[٢] - مدارج السالكين (١ / ٤٤٩).

[٣] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٤ / ٢٢٩٥)، برقم (٢٩٩٩) بلفظ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [(٦) سورة إبراهيم]، أي: إنعام وإفضال من الله -تبارك وتعالى- بإنجائكم وتخليصكم من فرعون وقومه، وقيل: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء} يعني ما كان يفعله فرعون بكم نقمة وأمر شديد، وصعب على النفوس، مؤلم لها غاية الإيلام، وقال ابن كثير - رحمه الله – "**ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى:** {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}"، وسبقه الحافظ ابن جرير الطبري –رحمه الله– وقال بهذا القول.

وقوله: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} [(٧) سورة إبراهيم] **أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى:** {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} **[(١٦٧) سورة الأعراف].**

قوله: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} ، تأذن يمكن أن تفسر بأعلم، والمعنى أي: أعلمتكم، ومنه قول الشاعر:

آذنتْنا ببيْنِها أسماءُ***رُبَّ ثَاوٍ يُملُّ منه الثَّوَاءُ

وقوله: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} **أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها،** {وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ} **أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها** {إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} **وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث: ((إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))**[٤].

وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [(٨) سورة إبراهيم] **أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره، كقوله:** {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} **الآية. وقوله:** {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [(٦) سورة التغابن]. **وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -عز وجل- أنه قال: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر))**[٥]. **فسبحانه وتعالى الغني الحميد.**

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} **[(٩) سورة إبراهيم]. خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة.**

قوله: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ} [(٩) سورة إبراهيم]، يحتمل أن يكون هذا من بقية كلام موسى -صلى الله عليه وسلم– فيذكرهم بنعم الله -عز وجل– ويذكرهم بما حل من النقم في الأمم السابقة.

ويحتمل أن يكون خبراً مستأنفاً من الله –تبارك وتعالى- موجهاً إلى هذه الأمة، بعدما قص خبر بني إسرائيل، ذكر ما تحصل به العظة، وهذا أحد المواضع التي يكون فيها الكلام محتملاً لكونه من كلام الله -عز وجل-

---

[٤] - رواه أحمد (٣٧ / ٦٨)، (٢٢٣٨٦).

[٥] - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو أنه من تمام كلام قبله لقائل آخر، وذكرنا أمثلة في بعض المناسبات، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] هذا من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ثم قال -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام]، وهذا يحتمل أن يكون من كلام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، من تمام كلامه، ويحتمل أن يكون من كلام الله على سبيل الفصل بين الفريقين.

فالله تعالى قد قصَّ علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله -عز وجل- {جَاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقال ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- أنه قال في قوله: {لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان.

هذه الرواية جاءت عن طريق ابن إسحاق ولو صحت عن ابن مسعود لكان المعنى ما فسره عروة بن الزبير بقوله: "**ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان**" يعني أن ما بين معد بن عدنان إلى إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- لا يُعرف، والذين يزعمون من الناسبين أنهم يعرفون سلسة النسب ليس لقولهم مستند.

قوله: {لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} أي: أن هذه الأمم لا تعرف بذاتها ولا بأسمائها، ولا بأوصافها، ولا بأحوالها وأعمالها، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} أي: لا يعلم أحوالهم وأعمالهم وأخلاقهم وأوصافهم إلا الله -تبارك وتعالى-.

وقوله: {فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} [(٩) سورة إبراهيم] قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل بأمرهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله -عز وجل-.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل، وقيل: معناه عضوا عليها غيظاً، وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم.

قلت: ويؤيد قولَ مجاهد تفسيرُ ذلك بتمام الكلام: {وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [(٩) سورة إبراهيم].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: {إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ} [(٩) سورة إبراهيم]الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

قوله: {فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} اختلف العلماء في عود الضمير في قوله: {أَيْدِيَهُمْ} والذي عليه عامة علماء التفسير أن الضمير يرجع إلى المكذبين، ويكون المعنى ردوا أيدي أنفسهم في أفواههم.

وقيل: إنهم ردوا أيدي الرسل في أفواههم، وهذا فيه بعد.

واختلف العلماء في عود الضمير في قوله: {أَفْوَاهِهِمْ} فقيل: الضمير يرجع إلى أفواه الرسل، وقيل: يعود الضمير إلى أفواه المكذبين، أي فردوا أيديهم في أفواه أنفسهم، فإذا قيل: إن المقصود بالأفواه هي أفواه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرسل، فيكون المعنى أنهم يسكتونهم بوضع أيديهم على أفواههم، وإذا قلنا: إن الضمير يرجع إليهم، فيكون المعنى أنهم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم وفعلوا ذلك على سبيل التعجب والاستغراب كما يفعله المتعجب حينما يغطي فمه لدهشته أو شدة تعجبه، وقال بعض أهل العلم: إن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم؛ لأنهم سخروا وضحكوا من الرسل –عليهم الصلاة والسلام-.

والذي عليه جماعة من المحققين أنهم ردوا أيديهم في أفواههم من الحنق والغيظ، ومنه قوله –تبارك وتعالى-: {وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [(١١٩) سورة آل عمران]، أي: من شدة الحنق عليهم، وهذا اختيار ابن جرير ومحمد الأمين الشنقيطي، والله أعلم.

(مسألة)

هناك فرق بين بلوغ الحجة، وقيام الحجة، وهذه المسألة فيها تفاصيل كثيرة للعلماء، فلو خاطبت شخصاً بالعربية وهو أعجمي ولا يفهم العربية ودعوتَه إلى الإسلام، ولا يوجد مترجم، فهل نقول: إن الحجة قد قامت عليه؟!

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن كثير من اليهود والنصارى: إنه قامت عندهم صوارف وشبهات وأشياء منعتهم من الدخول في الإسلام، لم يتضح لهم حقية ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وهذه المسألة من أقدم المسائل ولا نظر فيها إلا لأهل العلم الراسخين، ولم يكن من منهج السلف -رضي الله عنهم– إطلاق التكفير بدون ضوابط، فكانوا يقولون: القول بخلق القرآن كفر، ولكن الإمام أحمد لم يكفر المعتصم، بل جعله في حلٍ لما فتح عمورية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَالَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}[سورة إبراهيم:١٠-١٢].

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ} أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم: {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} أي: في الدار الآخرة، {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي: في الدنيا كما قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} الآية، فقالت لهم الأمم محاجّين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ}، "مِن" من أهل العلم من يقول بأنها صلة، أي: زائدة، فهي زائدة إعراباً، وإلا فالقرآن ليس فيه زائد؛ لأن الزيادة حشو في الكلام ينزه عنه القرآن، فعلى كل حال الذي حملهم على ذلك هو أن من آمن غفرت له جميع الذنوب، ومن أهل العلم -كسيبويه- من يقول بأن "مِن" هذه للتبعيض، وأنه لا مانع من ذكر البعض والمراد الكل، ذكر بعض الذنوب والمقصود جميع الذنوب، ليشمل ذلك ما ذكر وما لم يذكر، {لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ}، وممن قال بأنها للتبعيض، قال: لعل ذلك كان لتلك الأمم قبل الإسلام، وأنه من خصائص أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أن الإسلام يجب ما قبله، وهذا فيه إشكال ولا دليل عليه، وإنما كان مقصود من ذكره هو الخروج من هذا السؤال أو الإشكال، ومن أهل العلم من يقول بأنها ليست للتبعيض وليست زائدة، وإنما هي للبدل، فيكون {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ} أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}، والمقصود بالأجل المسمى هو أجلهم الذي حده الله -تبارك وتعالى- لهم، فيتمتعون في هذه الحياة الدنيا حتى تأتي آجالهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحاصل ما قالوه: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولمّا نرَ منكم معجزة؟، {فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أي: خارق نقترحه عليكم.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "أي: **خارق نقترحه عليكم**" تقدير لا بد منه؛ لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جاءوا بالآيات والحجج والمعجزات، فلم يقل أولئك الكفار ذلك لأنهم لم يروا آية، وإنما قصدوا بذلك الآيات التي يقترحونها على الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}: أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي: بالرسالة والنبوة، {وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ} على وفق ما سألتم، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} أي: بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أي: في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ} أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} أي: من الكلام السيئ والأفعال السخيفة، {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [سورة إبراهيم:١٣-١٧].

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له -عليه السلام- ولمن آمن به: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا} الآية. وكما قال قوم لوط -عليه السلام-: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ} الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً}. وقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، وكما قال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[سورة الصافات:١٧١]، وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[سورة المجادلة:٢١]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ} [سورة الأنبياء:١٠٥] الآية، {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[سورة الأعراف:١٢٨]، وقال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}[سورة الأعراف:١٣٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، بعض أهل العلم يقول: إن "أو" على بابها في التخيير، يعني: إما أن تعودوا في ملتنا أو يكون لكم الإخراج، وبعضهم يقول: إن ذلك بمعنى {لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ} إلا أن تعودوا في ملتنا، والعود يأتي لمعنيين: بمعنى الرجوع إلى الحال الأولى التي كان عليها، ومن فسر العود بهذا التفسير قال: لا مانع من أن يكون الرسل -عليهم الصلاة والسلام- على دين قومهم، فهم طالبوهم بالرجوع ثانية إلى دينهم، ومنهم من قال: إن مقصودهم بذلك أتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومن قال بأن الرسل -عليهم صلاة الله وسلامه- لم يكونوا على دين قومهم قال: إن العود معناه الصيرورة، وهو المعنى الآخر للعود، فالعود يأتي بمعنى عاد إلى كذا أي صار، تقول: عاد الماء ثلجاً، وليس بمعنى أنه رجع إلى حالته الأولى، فهو لم يكن ثلجاً، وإنما صار، وتقول أيضاً: عاد الثوب قميصاً، يعني القماش، ولم يكن كذلك من قبل، وعاد الفتى رجلاً، أو كهلاً، أو شيخاً، ولم يكن كذلك من قبل، وهكذا في أمثلة كثيرة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن:٤٦].

الوعد يكون في الخير غالباً، والوعيد في الشر، وقول الحافظ: "**لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة**" الصحيح لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أي: خاف مقامه بين يدي، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقريب من هذا قول من قال: {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أي: خاف موقفي، فالله -تبارك وتعالى- يحاسب كل واحد من الناس، فمن خاف لقاء الله –عز وجل- وحسابه فإنه ينتفع بالوعيد والآيات والعظات والتذكير، والله –عز وجل- يقول: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [سورة الأنعام:٣٠]، ومن أهل العلم من قال: {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أي: خاف قيامي عليه ومراقبتي له، وهذا معنى آخر غير المعنى الأول، المعنى الأول في الآخرة في الحساب، وهذا أعم أي: من خاف مقامي عليه ومراقبتي له في كل حين، ومن ذلك المحاسبة، محاسبتي له في الآخرة.

وقوله: {وَاسْتَفْتَحُوا} أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة.

قوله: {وَاسْتَفْتَحُوا} أي الرسل طلبوا النصر، وهذا اختيار ابن جرير، استفتحوا: أي طلبوا من الله أن ينصرهم على أعدائهم، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [سورة الأنفال:١٩]، فالفتح يأتي بمعنى النصر، وقيل: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تطلبوا الفتح وهو النصر، {فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ}، ويأتي الاستفتاح بمعنى الحكم، والفتح هو الحكم، والحاكم يقال له: فاتح، والحكَم يقال له: فتاحة أيضاً، "فإني عن فتاحتكم غني": أي عن حكمكم، ويقال للحاكم أيضاً: فتّاح، {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تطلبوا الحكم بين الفريقين.

وقوله: {وَاسْتَفْتَحُوا} يحتمل أن يكون المراد أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- طلبوا النصر، ويحتمل أن يكون ذلك عائداً إلى الفريقين، طلبوا أن يحكم الله بينهم، وأن يظهر صاحب الحق، وقد نقل الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عن بعض العلماء في الفتح: "أن الكفار والمكذبين وأصحاب الشبهات لربما يكونون في حال من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المكابرة والتكذيب بحيث إنهم يطلبون أن يُظهر الله الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل إظهاراً لشدة وثوقهم بما هم عليه، ويحتمل أن يكون الأمم كما قال: "**استفتحت الأمم على أنفسها**"، يعني: دعوا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: {اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[سورة الأنفال:٣٢]، ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [سورة الأنفال:١٩] الآية، والله أعلم.

{وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} أي: متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [سورة ق:٢٤-٢٦]، وفي الحديث: ((إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق، فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد))[١] الحديث.

أي: خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} [سورة الكهف:٧٩].

كلمة "وراء" من الأضداد، تأتي بمعنى أمام وبمعنى خلف، وتستعمل للمعنيين **{مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ}** أي: من أمامه، يعني فيما يستقبله، النار تنتظره، هو مفضٍ إلى النار، وهذا المعنى هو المتبادر؛ لأن ذلك شيء يستقبله، ويصير إليه، وهذا التفسير وإن لم يكن محل اتفاق لكن عليه كثير من المحققين، وهو الذي اختاره ابن جرير والشنقيطي وجماعة.

وقوله أيضاً -عليه الصلاة والسلام-: ((من ورائكم أيام الصبر))[٢]، يعني فيما تستقبلون، وبعضهم يقول: **{مِنْ وَرَائِهِ}** أي: من بعده.

وكان ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويُعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد، {وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ}.

---

١ - رواه بمعناه الترمذي برقم (٢٥٧٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، كتاب صفة جهنم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة النار، وأحمد في المسند (١٥٢/١٤)، برقم (٨٤٣٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥١٢).

٢ - رواه أبو داود برقم (٤٣٤١)، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، وابن ماجه برقم (٤٠١٤)، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم}، والحاكم في المستدرك (٣٥٨/٤)، برقم (٧٩١٢)، وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كتاب الرقائق، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ}[سورة إبراهيم:١٦] أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [سورة ص:٥٧-٥٨]، وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم.

يقول الله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [سورة محمد:١٥]، ويقول: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [سورة الكهف:٢٩] الآية، وهكذا رواه ابن جرير.

وقوله: {يَتَجَرَّعُهُ} أي: يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ}[سورة الحج:٢١]، {وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ}[سورة إبراهيم:١٧] أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع، {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [سورة إبراهيم:١٧] أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه، قال عمرو بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} [سورة فاطر:٣٦]، ومعنى كلام ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت، ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال تعالى: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} [سورة إبراهيم:١٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ}، الصديد ما كان من القيح والدم، قيل له ذلك؛ لأنه يصد عن النظر إليه، لقبح مرآه، فالنفوس تعافه وتنفر منه، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَتَجَرَّعُهُ} أي أنه لا يمضي في مجرى حلقه إلا بصعوبة وشدة {يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ}.

وقوله: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} ذكر الحافظ -رحمه الله- معنيين لهذه الآية: الأول: أن الموت يأتيه من كل موضع في بدنه؛ لأنه يجد في ذلك الموضع ما لو نزل به وحده لأصابه الموت منه، يعني: ما نزل في هذا الموضع لوحده يكفي أن يحصل بسببه الموت، ولكنه لا يموت؛ لأن الله قضى أن يتعذب بهذا، {لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا}[سورة فاطر:٣٦]، والقول الآخر الذي ذكره عن ابن عباس:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} أي: من كل نوع من أنواع هذا العذاب، فإذا شرب هذا الصديد الذي يقطع الأمعاء يأتيه الموت منه، وليس بين القولين منافاة -والله تعالى أعلم- فإن هذه أسباب، وما يقع عليه من ألوان العذاب فإنها مميتة، فيأتيه الموت من قِبَلها، وما يحصل له من آثار فإن ذلك أيضاً مميت، {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}، فحينما يضرب بالمقامع من حديد يأتيه الموت، وهكذا حينما يشرب هذا الشراب، أو يشوى بالنار، نسأل الله العافية.

وقوله: {وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [سورة إبراهيم:١٧] أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٣-٤٤]، وقال تعالى: {إن شجرة الزقوم طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} [سورة الدخان:٤٣-٥٠]، وقال: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ} [سورة الواقعة:٤١-٤٤]، وقال تعالى: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [سورة ص:٥٥-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله -عز وجل- جزاءً وفاقاً {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦].

الإنسان حينما يرى بعض الصور لأناس قد شُوهت أجسادهم مما وقع عليهم من الأذى والتعذيب، أو إلقاء المواد الحارقة، وما يحصل من التشويه والتمثيل بسلخ للوجه، وتقطيع للأنوف والآذان، وسمل للعيون، لا يسوغ له الطعام ولا الشراب ولا النوم بسبب هذه المناظر المقززة، فالذي يُخرق رأسه، أو تقطع أعضاؤه، أو تلقى عليه هذه المواد الحارقة، أو يسلخ حتى يموت، ولا يشعر بعد ذلك بما يجري له، قد يكون ذلك دقائق، أو ساعات، لكن لو تفكر الإنسان فيما ذكر الله ووصف من عذاب أهل النار فهو شيء لا يمكن للعقل أن يصل إلى مداه، أو أن يتصوره على حقيقته، وهو شيء دائم مستمر لا ينقطع، لا يفضي بهم هذا إلى راحة بعد مدة فيكون عند الإنسان شيء من الرجاء، نسأل الله أن يعيذنا وجميع المسلمين من النار.

{مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىَ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} [سورة إبراهيم:١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت، وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ} أي: مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يُتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة، {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً} [سورة الفرقان:٢٣]، وقوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة آل عمران:١١٧]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة:٢٦٤]، وقوله في هذه الآية {ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ} أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه {ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ}.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في قول الله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ} الآية: "فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور -لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله -عز وجل- وعلى غير أمره- برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه؛ فلذلك قال: {لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىَ شَيْءٍ} لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه، والأعمال أربعة فواحد مقبول وثلاثة مردودة، فالمقبول: الخالص الصواب، فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً، كما ينشيء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثّرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار"[1].

وجه تشبيهها بالرماد ولم يشبهها بالدقيق أنه لا يقدر من هذا على شيء ولا يبقى منه شيء، هذا في أصل المثل، فهذه قد احترقت بالنار وتحولت من شيء إلى شيء، وتحول الرماد إلى شيء لا ينتفع به أصلاً، فجاءت الريح فأطارت به، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها من صدقة ونحو ذلك، لمّا خالطتها نجاسة الشرك وكانت لغير الله -عز وجل-، صارت بمنزلة هذا الرماد، وجاءت عليه الريح، وصورة هذا المثل أن أعمال الكفار كرماد اشتدت به الريح فلا يبقى منه شيء، ولا ينتفعون بشيء.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ} [سورة إبراهيم:١٩-٢٠].

---

١ - الأمثال في القرآن الكريم للإمام ابن القيم (٣٤)، تحقيق: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبَرارٍ وصَحارٍ، وقفار وبحار، وأشجار ونبات، وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[سورة الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة يـــس:٧٧-٨٣]، وقوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} أي: بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[سورة فاطر:١٥-١٧]، وقال: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [سورة محمد:٣٨]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}[سورة المائدة:٥٤]، وقال: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً}[سورة النساء:١٣٣].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحقّ}، الرؤية هنا بمعنى ألم تعلم، وقوله: {بِالْحقّ} يمكن أن يقال: خلقاً متلبساً بالحق، أي أن الله لم يخلق السماوات والأرض من أجل اللهو والعبث -سبحانه وتعالى- عما يقول الكافرون والظالمون علواً كبيراً، فالله جل جلاله يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [سورة الدخان:٣٨]، ويقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص:٢٧]، فهذه من الظنون الفاسدة، الظنون السيئة بالله -تبارك وتعالى-، فخلقها بالحق خلقاً متلبساً بالحق، وخلقها لغاية عظيمة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[سورة الملك:٢].

{وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ}[سورة إبراهيم:٢١].

يقول تعالى: {وَبَرَزُواْ} أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ} وهم الأتباع، لقادتهم وسادتهم وكبرائهم {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً} أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: {لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} ولكن حق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين، {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ}[سورة غافر:٤٧-٤٨]، وقال تعالى: {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}[سورة الأعراف:٣٨-٣٩]، وقال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً}[سورة الأحزاب:٦٧-٦٨]، وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[سورة سبأ:٣١-٣٣].

الكبراء والقادة لهم ضعف العذاب باعتبار أنهم أضلوا الأتباع، ((ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها))[٢]، لكن قوله: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} يشمل الأتباع، ووجه ذلك أن هؤلاء الأتباع لا يخلو الواحد منهم من إضلال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه))[٣]، فهذا التابع الفقير المسكين الذي يكون في غاية الضعف والمهانة، إذا جاءه أولاد فنشأهم على الكفر يكون قد أضلهم، فالواحد من الأتباع لا يخلو من إضلال لغيره.

---

٢ - رواه ابن ماجه برقم (٢٠٣)، كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، وأحمد في المسند (٥٣٦/٣١)، برقم (١٩٢٠٠)، وقال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٣٠٦).

٣ - رواه البخاري برقم (١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم برقم (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ}[سورة إبراهيم:٢٢-٢٣].

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله- يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً} [سورة النساء:١٢٠]، ثم قال: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} أي: ما كان لي فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به {إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، {فَلا تَلُومُونِي} اليوم {وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ} أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} أي: بنافعيّ بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله -عز وجل-، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف:٥-٦]، قال: {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} [سورة مريم:٨٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قيل الشيطان: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}، يمكن أن يكون من باب إضافة الشيء إلى نفسه، {وَعْدَ الْحَقِّ}، كقولك مثلاً: مسجد الجامع، ويمكن أن يكون فيه مقدر، تقديره: وعدكم وعد اليوم الحق، وهذا وإن كان قول البصريين من النحاة إلا أن الأصل عدم التقدير، ومتى ما أمكن أن يحمل الكلام على معنىً لا تكلف فيه يستغنى فيه عن التقدير فهو أولى، {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} فلا يتبادر منه أن المقصود وعدكم وعد اليوم الحق، وقوله -تبارك وتعالى- عن الشيطان يقول: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سُلْطَانٍ} أي: من حجة وتسلط، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، والأقوال التي قيلت في هذه الآية -آية الإسراء {جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا}- يمكن أن يجمع بين كثير منها، فيمكن أن يقال: حجة، ويمكن أن يقال: {سُلْطَانًا} أي: تسلطاً على هذا القاتل، أي أن الله جعل لولي القتيل سبيلاً على هذا القاتل، وهذا مع القول الذي قبله ليس بينهما منافاة؛ لأن هذا السبيل إليه والتسلط إنما كان بجعل الله -عز وجل- له ذلك، فهذا هو السلطان، وقوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ}، قيل: حجة، وقيل بأنه تسلط، ولا إشكال، فهو دعاهم من أجل أن يقبلوا قوله، ويتبعوا ما أمرهم به، ولم يكن له حجة ولا برهان، وإنما غاية ما هنالك أنه دعاهم، وهكذا لم يكن له سبيل إلى قهرهم وإجبارهم، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [سورة الإسراء:٦٥] أي: لا سبيل لك عليهم، وقال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [سورة النحل:١٠٠]، فهؤلاء يهيمن عليهم الشيطان، ويغلبهم، ويقهرهم، وذلك بأنهم سلموا له قيادهم، كما قال الله -عز وجل-: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} [سورة المجادلة:١٩]، والأقوال التي قيلت في قوله: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} صحيحة، ولا منافاة بين {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ} أي: قهرهم، أو ضمهم إليه، أو جمعهم إليه حتى صاروا من حزبه وبين {أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} [سورة المجادلة:١٩]، وليس معنى ذلك أنه سُلط عليهم ابتداءً بما عنده من الحجج والقهر الحسي، وإنما الذين يتولونه ويطيعونه سلموا له قيادهم، فصاروا ينقادون له في كل ما يأمرهم به، فتمكن منهم وغلبهم حتى صاروا طوع البنان، ورهن الإشارة، لا يردون له طلباً، فصارت الشياطين تتلاعب بهم وتملي لهم، فكلما أمرتهم بشيء -مهما كان متناهياً في القبح والسوء والشر- فإنهم ينقادون ويفعلون، فتمكن منهم وغلبهم، {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} نسأل الله العافية.

وقوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} "إلا": هذا الاستثناء يمكن أن يكون من قبيل المنقطع، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فدعوته لهم ليست من قبيل السلطان، والاستثناء المتصل: هو أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، والاستثناء المنقطع عكسه، فيكون المعنى: ولم يكن لي عليكم سلطان، لكن دعوتكم فاستجبتم لي، {فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوَاْ أَنفُسَكُمْ}، ومما يدل على هذا ويقويه -والله أعلم- قوله: {إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مّن سُلْطَانٍ}، فـ{سُلْطَانٍ} نكرة في سياق النفي، وقد سبقت بـ"من"، وإذا سبقت النكرة في سياق النفي بـ"من" فإن ذلك ينقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز التنصيص الصريح في العموم، {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} بوجه من الوجوه، لكن دعوتكم فاستجبتم لي، -والله أعلم-.

وقوله: {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ}، الصارخ: هو المستغيث، والمصرخ: هو المغيث المنقذ، والله -عز وجل- يقول: {فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ}[سورة يـــس:٤٣] يعني: ليس لهم من ينقذهم ويخلصهم، تقول: سمع صارخاً، يعني مستغيثاً.

وقوله: {إِنَّ الظَّالِمِينَ} أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم -عليه السلام-: {أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ}[سورة المائدة:١١٦] إلى قوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [سورة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المائدة:١١٩]، **قال: ويقوم إبليس -لعنه الله- فيقول:** {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} **الآية.**

قوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ}[سورة إبراهيم:٢٢]، هذا يكون يوم القيامة، وهو الراجح، وليس هذا محل اتفاق من أهل العلم، فقيل: إن هذا يكون في القيامة قبل دخول النار، يعني في المحشر، لكن الظاهر -والله أعلم- أن هذا يكون بعد دخولها، فهؤلاء الذين يتلاومون ويتحاجّون من الأتباع والمتبوعين، هذا كله بعد دخولهم النار، نسأل الله العافية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال وأن خطيبهم إبليس، عطف بمآل السعداء، فقال: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، **سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا،** {خَالِدِينَ فِيهَا} **ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون،** {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}، **كما قال تعالى:** {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} **[سورة الزمر:٧٣]، وقال تعالى:** {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [سورة الرعد:٢٣]، **وقال تعالى:** {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً} **[سورة الفرقان:٧٥]، وقال تعالى:** {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} **[سورة يونس:١٠].**

قوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} تحية: مصدر، وقوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} يحتمل أن يكون بمعنى : ما يحييهم الله به، وهذا معنىً صحيح؛ لأن الله يقول: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}[سورة يـــس:٥٨]، ويمكن أن يكون من قبيل تحية الملائكة لهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ}[سورة الرعد:٢٣-٢٤]، ويمكن أن يكون {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} أي: ما يحيي به بعضهم بعضاً، وهذا صحيح، فالسلام تحية أهل الجنة، فكل هذه المعاني صحيحة، {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب:٤٤] والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ * تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} **[سورة إبراهيم:٢٤-٢٦].**

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً} **شهادة أن لا إله إلا الله،** {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} **وهو المؤمن،** {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} **يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن،** {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} **يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يُرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء.**

هذه الطريقة في تفسير الأمثال: أن يفسر كل جزء من المثل وينزل على ما ضرب له المثل، هذه الطريقة عليها كثير من أهل العلم من أهل اللغة، والمفسرين، والطريقة الأخرى تفسر المثل بجملته، يقال: هذا مثل ضربه الله -عز وجل- لكلمة التوحيد، وما لها من الآثار والمنافع والثبات وما يقابلها من كلمة الشرك التي لا أساس لها ولا أصل ولا ثبات، وإنما هي كلمة هشة، لا حقيقة لها ولا جذور، وليس عليها برهان ولا حجة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هكذا تفسير المثل بإجمال، وأصحاب هذه الطريقة يقولون: قد لا تكون كل جزئية في المثل يقصد بها أن تكون موضحة أو منزلة على جزء مما ضرب له المثل، والذين يفسرون الأمثال بالطريقة الأولى يفسرون كل جزء من المثل، وهذا يكون أدعى للاختلاف، فالحاصل أن {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً} مَن نظر إلى لفظة {كَلِمَةً}، والكلمة كما هو معروف: هي لفظة مركبة من الحروف الهجائية، إذا كانت غير مفيدة، فإنه يقال لها: لفظ؛ لأن اللفظ المراد به ما يلفظ، أي الملفوظ، فإذا قلت: ديز مثلاً مقلوب زيد فهذا لفظ، وأما الكلمة عندهم فتكون مفيدة، سواء كانت مفردة أو مركبة، تقول: زيد فهذا اسم غير مهمل -مثل ديز-، وتكون مركبة أيضاً كما يقال: "كلمة" للخطبة أو المحاضرة، كما قال ابن مالك:

"وكلمةٌ بها كلامٌ قد يُؤم".

أي: قد يقصد بالكلمة الكلام، تقول: فلان ألقى كلمة، فالحاصل أن الكلمة الطيبة، من نظر إلى لفظة كلمة قال: هي "لا إله إلا الله"، ومن نظر إلى المعنى قال: هي التوحيد، ولا منافاة، فبعض أهل العلم كابن جرير يقول: هي التوحيد، هذا مثل للتوحيد، والتوحيد يعبر عنه بـــ "لا إله إلا الله"، فهذه الأقوال لا يحتاج إلى ترجيح بينها، فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي الإيمان، وهي "لا إله إلا الله"، كل هذه الأقوال بمعنىً واحد، وترجع إلى شيء واحد، مثل هذه الكلمة في ثباتها وتأثيرها ونفعها وبركتها {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ} جذورها عميقة، {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ}، فهذه ثلاثة أشياء، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- له كلام جيد في تفسير هذا المثل، فقال -رحمه الله تعالى- في تفسير هذه الآية: "فشبه -سبحانه وتعالى- الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين، يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله فهو ثمرة هذه الكلمة، وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: {كَلِمَةً طَيِّبَةً} شهادة أن لا إله إلا الله {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} وهو المؤمن {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} قول: "لا إله إلا الله" في قلب المؤمن، {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وقال الربيع بن أنس: {كَلِمَةً طَيِّبَةً} هذا مثل الإيمان، فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللاً غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كَلِماً كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العملُ الصالح الكلِمَ الطيب، كما قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحاً كل وقت، والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً متصفاً بموجبها قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت. ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- في الصحيح[1]، ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء: بكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض"[2].

وهذه الرواية ضعيفة لا تصح بحال من الأحوال.

وقال ابن القيم رحمه الله: "وقال عطية العوفي في قوله: {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله، وقال الربيع بن أنس: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ} قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له، {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} قال: أصل عمله ثابت في الأرض، {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ} قال: ذكره في السماء، ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة"[3]أ.هـ.

والقول بأنها المؤمن فيه بُعد، والأقرب هو القول بأنها لا إله لا إله، أو أنها التوحيد، لكن بين القولين نوع ارتباط، باعتبار أن لا إله إلا الله لها أثر على هذا المؤمن حيث صار بهذه المثابة من العمل، والجد والاجتهاد في طاعة الله -عز وجل-، ولا يصدر منه إلا كل قول حسن، كما قال الله -عز وجل-: {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}[سورة النـــور:٢٦]، وقال: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ} [سورة النـــور:٢٦]، يقول ابن جرير: إن الكلمات الطيبات للطيبين من الناس، والكلمات الخبيثات للخبيثين من الناس، فإذا قالها

---

١ - رواه البخاري برقم (١٣١)، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ومسلم برقم (٢٨١١)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة.

٢ - الأمثال في القرآن الكريم (٣٦-٣٧)، للإمام ابن القيم، تحقيق: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة - طنطا، ط١، سنة النشر:١٤٠٦هـ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١٠٣/١-١٠٤)، دراسة وتحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر - القاهرة- سنة النشر:١٣٨٨هـ.

٣ - الأمثال في القرآن الكريم (٣٧) للإمام ابن القيم، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١٠٤/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهل الإيمان نفعتهم الكلمات الطيبة، إن صدرت منهم نفعتهم، وإن صدرت من الكافرين من الخبيثين لم تنفعهم، وإذا صدرت الكلمات الخبيثات في حق أهل الإيمان لم تضرهم، وهو أحد المعاني الداخلة تحتها؛ لأن ذلك يشمل الذوات، والآية نزلت في قضية الإفك، وتبرئة عائشة -رضي الله عنها-، فالطيبات من الذوات ومن الأقوال والأعمال، -والله تعالى أعلم-.

والكلمة في قوله: **{كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ}** هي كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، -والله تعالى أعلم-، ومُثلت بالشجرة الطيبة التي تكون بهذه المثابة، وأولى ما تصدق عليه هذه الشجرة هي النخلة، لكن ذلك لا يختص بها في ظاهر اللفظ، وإنما ضرب بمثل؛ لأن من الأشجار ما يكون طيباً، ومنه ما يكون خبيثاً، لا ثبات له، وليس له ثمرة ينتفع بها كالحنظل مثلاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}[سورة إبراهيم:٢٤] الآية: "وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به وحكمته، فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدي والدَّل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والهدي، والدَّل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ومنها أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس، وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الإيمان يَخلَق في القلب كما يَخلَق الثوب فجددوا إيمانكم))[1]، وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلِب على الغراس والزرع ويكون الحكم له، أو يُضعِف الأصلَ ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقهُ نفسٍ في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كبير وهو لا يشعر، فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

---

١ - رواه الحاكم في المستدرك، (٤٥/١)، برقم (٥)، وقال: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٨٥)، وصححه في صحيح الجامع برقم (١٥٩٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته.

فصل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل ولا جنى ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغدِق، ولا أعلاها مونق، ولا جنى لها، ولا تعلو بل تُعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك، فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، الذي هو كتاب الرب سبحانه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ} [سورة إبراهيم:٢٦] وهي الشرك، {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} يعني: الكافر {اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

وقوله: {اجْتُثَّتْ} أي: استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين، أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم"[٢] أ.هـ.

---

٢ - الأمثال في القرآن الكريم للإمام ابن القيم (٣٨-٤١)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٢٠٤-٢٠٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: وروى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أخبروني عن شجرة تشبه -أو كالرجل- المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها))، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هي النخلة))، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا"[٣].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} قال: هي شجرة في الجنة، وقوله: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ} قيل: غدوة وعشياً، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يُرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين، {بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً، {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "{بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي: **كاملاً حسناً**"، ليس هو معنى {بِإِذْنِ رَبِّهَا} وإنما أراد أن يصل المعنى فحسب، يعني يريد أن يصل هذه الجملة بكلام، {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [سورة إبراهيم:٢٥] كاملاً تاماً لا نقص فيه، هذا الذي قصد، ومعنى {بِإِذْنِ رَبِّهَا}: لا يكون شيء إلا بإذنه -تبارك وتعالى- ومشيئته، وفي مثل هذه الأشياء المقصود بالإذن فيها الإذن الكوني، بخلاف قوله -تبارك وتعالى-: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [سورة الحشر:٥] والأقرب أنه يشمل الإذن الكوني والإذن الشرعي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مثّل المؤمن بالنخلة، لكن الكلام على الكلمة الطيبة، وليس الكلام على المؤمن، فالكلمة الطيبة كشجرة طيبة، والله -عز وجل- لم يحدد شيئاً بعينه، فيقال: كشجرة طيبة، وهو ما كان بهذه المثابة {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ}، فلا يختص هذا بشجرة في الجنة، أو بشجرة بعينها، وإنما المقصود هو البيان والإيضاح للحالة المشبه بها، المضروب بها المثل.

وقوله تعالى: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها الشريان، رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: أنها شجرة الحنظل.

هذا على سبيل المثال، وإلا فإن ذلك لا يختص بشجرة الحنظل، وإنما كل ما ينطبق عليه هذا الوصف؛ ولذا قال بعض السلف غير هذا، وإنما ذكروا أشياء أخرى، بعضهم يذكر من الأشجار أشجار البرية، وبعضهم يذكر غير هذا، فالمقصود هو موطن العبرة، وهو ما ضرب له المثل، حال الكافر، أو حال الكفر، {كَشَجَرَةٍ

---

٣ - رواه البخاري برقم (١٣١)، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ومسلم برقم (٢٨١١)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خَبِيثَةٍ} فإن الكفر لا يورث ثماراً، وإنما يورث ثماراً مرة، فإذا كان الإنسان كافراً فسدت أعماله وأحواله كلها، وصار كده وسعيه وشغله فيما يضره ولا ينفعه، فيما يبعده من ربه -تبارك وتعالى-، ولا يقربه، فلا يصدر منه إلا كل سيئ إما لذاته وإما لفساد قصده فيه، لا يريد به وجه الله -تبارك وتعالى-، فالكفر نجاسة غليظة، وهي داء إذا دخل في قلب الإنسان أفسد عليه أمره كله، {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}، فالكفر والشرك ليس له أصل ثابت ولا برهان ولا حجة، وإنما هو شيء لا يجاوز أفواه قائليه، وهذه المعبودات التي يعبدونها من دون الله -عز وجل- ما هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان.

وشجرة الحنظل ليس لها ساق، وتمتد في الأرض يخرج منها ثمر يشبه البطيخ، لكنه مستدير تقريباً، أخضر وإذا استوى صار أصفر، إذا فتحته وجدت فيه حباً أسود، في غاية المرارة، يضرب به المثل في المرارة، يقال: فلان حنظلة، يسمون حنظلة من أجل أعدائهم، أي شديد المرارة، وإذا وطأ عليه الإنسان بباطن القدم استطلق بطنه، وهو معروف ينبت ولا يُزرع، طفيلي في المزارع المهملة، أو في حواشيها، والصحاري.

وقوله: {اجْتُثَّتْ} أي: استؤصلت، {مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

{يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء}[سورة إبراهيم:٢٧].

روى البخاري عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}))[٤]. ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

هذا الحديث هو من قبيل التفسير النبوي، وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه الآية، وهو ثابت في الصحيحين، لكن قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ}))، إذا سئل في القبر، ليس بصريح في أن هذا من التثبيت في الحياة الدنيا أو في الآخرة، هذا الحديث ذكر السؤال في القبر وذلك داخل في قوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} فهذا مما يدخل فيه، النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نوعاً يدخل فيه التثبيت وهو الظاهر؛ لأنه ذكر الحياة الدنيا والآخرة، وهما داران، وذكر السؤال في القبر، فيبقى النظر، هل هذا التفسير من النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي قصد به السؤال في القبر هو من التثبيت في الحياة الدنيا؟، ثم يبقى النظر بعد ذلك في التثبيت في الآخرة عند سؤال الله -عز وجل- للعبد والحساب، فعلت كذا وكذا، والإنسان بحاجة إلى تثبيت عند سؤال الله -عز وجل-، والحساب، كما أن الإنسان بحاجة إلى تثبيت قدمه على الصراط، فمن أهل العلم من يقول: إن السؤال في القبر هو المراد بقوله: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} في الدنيا، {وَفِي الآخِرَةِ} هو عند الحساب، وقالوا: القبر لا زال في الدنيا، كيف لا زال في الدنيا، قالوا: إن الآخرة لا تكون إلا بعد البعث والنشور،

---

٤ - رواه البخاري برقم (٤٤٢٢)، كتاب التفسير، باب {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}، ومسلم برقم (٢٨٧١)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، واللفظ للبخاري..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فجعلوا التثبيت الأول في القبر في الحياة الدنيا، والثاني بعد البعث والنشور، عند الحساب، وهذا فيه إشكال؛ لأن القبر هو أول منازل الآخرة، وإذا مات ابن آدم قامت قيامته، ولهذا فإن من أهل العلم من يقول: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} إن هذا على ظاهره، يثبتهم على الصراط في الدنيا، فيثبتون على إيمانهم، وطاعتهم لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- حتى الممات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كثيراً ما كان يدعو: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))[٥]، فيدعو الإنسان بهذا؛ لأنه بحاجة إليه، فهذا تثبيت في الحياة الدنيا، والتثبيت في الآخرة فسره بعض السلف بالقبر، فالقبر من الآخرة، ويمكن أن يقال: إن هذا أحد الأنواع الداخلة تحته، فالتثبيت في الآخرة يشمل سؤال الملكين، وكل ما يحتاج فيه الإنسان إلى التثبيت، على الصراط، وتثبيت قدمه على الصراط وعند سؤال الله -عز وجل- ومحاسبته إياه، {وَفِي الآخِرَةِ}، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد، فجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: ((استعيذوا بالله من عذاب القبر)) مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: ((إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ــ قال ــ: فتخرج تسيل، كما تسيل القطرة من فِي السقاءِ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها، يعني على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذين بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ــ قال ــ: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك

---

٥ - رواه الترمذي من حديث أنس -رضي الله عنه- برقم (٢١٤٠)، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وأحمد في المسند (١٩/١٦٠)، برقم (١٢١٠٧)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٩١)، وفي صحيح الجامع برقم (١٣٩٤٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي))[٦].

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٩٩/٣٠)، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة سياقه لحديث البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-: قال: ((وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتَفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له -ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}- [(٤٠) سورة الأعراف] فيقول الله -عز وجل-: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً -ثم قرأ {حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}- [(٣١) سورة الحج] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة))[1]. ورواه أبو داود وابن ماجه.

وروى الإمام عبد بن حميد -رحمه الله تعالى- في مسنده عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة))، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فيراهما جميعاً))[2]، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون

---

[1] - رواه أحمد (٣٠ / ٤٩٩ - ٥٠١)، برقم (١٨٥٣٤).

[2] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (١ / ٤٦٢)، برقم (١٣٠٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب عرض مقعد الميت من الجنة (٤ / ٢٢٠٠)، برقم (٢٨٧٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذراعاً، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم عن عبد بن حميد به، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب.

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذي -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا قبر الميت ــ أو قال: أحدكم ــ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما منكر والآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، وينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك))[٣] ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [(٢٧) سورة إبراهيم] ، ذلك إذا قيل له في القبر: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث))[٤].

وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده، إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قِبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعني حتى أصلي، فيقال له: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول به، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حَييتَ وعلى ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدىء من التراب))[٥]، وذلك قول الله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، رواه ابن حبان فذكر جواب الكافر وعذابه.

---

[٣] - رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (٣ / ٣٨٣)، برقم (١٠٧١).

[٤] - تفسير الطبري (١٦ / ٥٩٨).

[٥] - رواه ابن حبان، كتاب الجنائز، باب المريض وما يتعلق به (٧ / ٣٨٠)، برقم (٣١١٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣ / ٥٦)، برقم (١٢٠٦٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وروى عبد الرزاق عن ابن طاوس {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قال: لا إله إلا الله، {وَفِي الْآخِرَةِ} المسألة في القبر.

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، {وَفِي الْآخِرَةِ} في القبر، وكذا روي عن غير واحد من السلف.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالتثبيت الذي يكون في الحياة الدنيا يمكن أن يحمل -والله تعالى أعلم- على التثبيت على الأعمال الصالحة، وعلى شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى الإيمان في الحياة وعند الممات، حتى يختم للإنسان بالسعادة في الآخرة، وهي تبدأ منذ موت الإنسان، فالقبر أول منازل الآخرة، فإذا جاءه الملكان فسألاه فثبته الله -عز وجل- فهذا من هذا التثبيت، والله تعالى أعلم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [(٢٨-٣٠) سورة إبراهيم].

قال البخاري: قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً} ألم تعلم، كقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ} [(٢٤) سورة إبراهيم] {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ} [(٢٤٣) سورة البقرة]، البوار الهلاك، بار يبور بوراً، و{قَوْماً بُوراً} هالكين.

حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء، سمع ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً} قال: هم كفار أهل مكة.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً -رضي الله تعالى عنه- عن {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [(٢٨) سورة إبراهيم] قال: هم كفار قريش يوم بدر، وقال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، والمعنى يعم جميع الكفار فإن الله تعالى بعث محمداً -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار.

اختلف المفسرون في معنى قوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً}** فقيل: المراد بهم كفار قريش، **{وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}** يعني في الدنيا، بما وقع لهم في يوم بدر حيث قُتل رءوسهم وسادتهم وكبراؤهم، وأُسر من أسر.

وقيل في قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً}** هذه الآية تعم جميع الكفار وهذا هو الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- فيكون **{وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}** يعني في النار، ويمكن أن تحمل الآية على عمومها فيدخل فيها القولان، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} أي: مرجعكم وموئلكم إلينا كما قال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَذَابٍ غَلِيظٍ} [(٢٤) سورة لقمان]، وقال تعالى: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة يونس].

قوله: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] أي: ليضلوا الناس عن دين الله -تبارك وتعالى- وعن الإيمان، وفي قراءة أبي عمرو وابن كثير {ليَضلوا عن سبيله} بفتح الياء، وعلى هذه القراءة تكون اللام للعاقبة، كقوله –تبارك وتعالى-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [(٨) سورة القصص].

قوله: {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [(٣٠) سورة إبراهيم] كقوله -تبارك وتعالى-: {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [(٤٩) سورة الدخان] فليس الأمر يدل على وجوب أو استحباب أو إباحة، وإنما يقال ذلك لهم وعيداً وتهديداً.

{قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم].

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلانية: وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم {مّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ} وهو يوم القيامة {لاّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} أي: ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [(١٥) سورة الحديد]، وقوله: {وَلاَ خِلاَلٌ} قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخالّة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخالتّه، بل هناك العدل والقسط، والخِلال مصدر من قول القائل: خاللتُ فلاناً فأنا أُخالّه مُخالّة وخلالاً، وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخِلالاً يتخالّون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه، قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيعٌ ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٥٤) سورة البقرة].

قوله: {قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم] اختلف العلماء في "مِن" هل المراد بها التبعيض أو غير ذلك؟، فمن حملها على التبعيض قال: لا يجب على الإنسان أن ينفق كل ماله.

وقد تكلم أهل العلم في إنفاق كل المال، فمنعه بعضهم، وفصل فيه آخرون -وهو الأقرب- وقالوا: إن ذلك يختلف باختلاف الناس، فأبو بكر -رضي الله عنه- تصدق بكل ماله، وعمر -رضي الله عنه- تصدق بشطر ماله، ولم يقبل النبي –صلى الله عليه وسلم– من رجل تصدق بقطعة من ذهب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {سِرًّا وَعَلانِيَةً}، قال بعض السلف {سِرًّا} أي: الصدقة، {وَعَلانِيَةً} أي الزكاة، والأقرب -والله أعلم- أن هذه الآية لا تختص بالصدقة أو الزكاة، فالزكاة لا تقيّد دائماً بالعلانية، والصدقة لا تقيد دائماً بالسر، وإنما يكون ذلك بحسب الحال والمصلحة، فالرجل الذي يكون في بلد لا تُخرج فيها الزكاة مثلاً، أو يقصر الناس فيها كثيراً فإظهارها من أجل إحياء هذه الشعيرة أمر مطلوب، ومن خشي التهمة فإنه يخرجها علانية.

فإذا قال قائل: أنا لا أستطيع أن أخلص في هذه العبادة إلا إذا أخرجتها سراً، أما إذا أعلنت بها دخل في قلبي الرياء، فنقول: الواجب عليك أن تخرجها سراً، وكذلك بالنسبة للصدقات.

فإذا كانت المصلحة إخراج الصدقات أو إنفاق الأموال سراً أنفقوها سراً، وإذا كانت المصلحة تقتضي إخراجها علانية أخرجت علانية، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى الصدقة فيأتي أصحابُه أمام الناس، فهذا يأتي بصرّة قد عجزت عنها كفه، وهذا يأتي بشيء يسير، وآخر يأتي بشيء كثير، فكان أهل النفاق يلمزون من جاء بمال قليل بقولهم: الله غني عن هذا وصدقته، ويقولون فيمن جاء بمال كثير: هذا مُراء، فأنزل الله: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٩) سورة التوبة].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لّكُمْ وَسَخّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ * وَسَخّرَ لَكُمُ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخّرَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ * وَآتَاكُم مّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ}[سورة إبراهيم:٣٢-٣٤].

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان، والأشكال، والطعوم، والروائح، والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع، {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} أي: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس:٤٠]، {يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [سورة الأعراف:٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [سورة الحـــج:٦١]، {يُكَوِّرُ الليْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}[سورة الزمر:٥].

وقوله: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} يقول: هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم.

وقوله: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا} يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، وفي صحيح البخاري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اللهم لك الحمد غير مكفيّ ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا))[1].

وقد روي في الأثر أن داود -عليه السلام- قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود. أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيّ أَن نّعْبُدَ الأصْنَامَ * رَبّ إِنّهُنّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مّنَ النّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنّهُ مِنّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنّكَ غَفُورٌ رّحِيمٌ} [سورة إبراهيم:٣٥-٣٦].

---

١ - رواه البخاري برقم (٥١٤٢)، كتاب النفقات، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يذكّر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام بمكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرّأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً} وقد استجاب الله له، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا} [سورة العنكبوت:٦٧] الآية، وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً} [سورة آل عمران:٩٦] وقال في هذه القصة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً} فعرّفه لأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ} [سورة إبراهيم:٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق -عليهما السلام- بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً}، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلاً.

وقوله: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ}، الإحصاء: هو العد، وأصل ذلك فيما يُذكر -والله تعالى أعلم-: أن العادّ في السابق كان كلما بلغ عقداً في الأعداد وضع حصاة، من أجل أن يضبط العد، فصار ذلك يقال له: الإحصاء، أخذاً من وضع الحصى، هكذا قيل، كما قيل في اليمين: إن أصلها أن الرجل كان إذا حلف أخذ بيمين صاحبه توثيقاً لليمين، توثيقاً للقول بالفعل، فقيل له يمين، -والله تعالى أعلم-، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}، والفرق بينه وبين ما في البقرة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}[سورة البقرة:١٢٦]، فدعا لها بشيئين: أن يصير هذا المكان بلداً؛ لأنه جاء إلى وادٍ ليس فيه أحد، ودعا لها بالأمن، كما في قوله: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً} وجاءها مرة أخرى بعد أن صارت بلداً، فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً}، فدعا لها هنا بشيء واحد وهو الأمن.

ومن الأدلة على أن هذه هي المرة الثانية أنه قال: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [سورة إبراهيم:٣٩]؛ لأن إسحاق لم يكن موجوداً حينما جاء أول مرة، إنما جاء بإسماعيل وأمه.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى -عليه السلام-: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[سورة المائدة:١١٨]، وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك.

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا قول إبراهيم -عليه السلام-: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ} الآية، وقول عيسى -عليه السلام-: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} الآية، ثم رفع يديه ثم قال: ((اللهم، أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي)) وبكى فقال الله: اذهب يا جبريل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى محمد -وربك أعلم- وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل -عليه السلام- فسأله، فأخبره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك"[٢].

قول عيسى -عليه الصلاة والسلام-: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وقول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، والفرق بين هذا وبين قول الأنبياء كنوح -عليه الصلاة والسلام-: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [سورة نوح:٢٦]، وقول موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ} الآية [سورة يونس:٨٨]، فدعاء الأنبياء هؤلاء -عليهم الصلاة والسلام- على قومهم يمكن أن يقال فيه -والله تعالى أعلم-: إن نوحاً -عليه الصلاة والسلام- قال ذلك لما أخبره ربه -تبارك وتعالى-: {أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ} [سورة هود:٣٦]، وجلس فيهم هذه المدة الطويلة، وأما قول موسى -صلى الله عليه وسلم- فيمكن أن يكون قد قال ذلك بعد أن قالوا له: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}[سورة الأعراف:١٣٢]، فلما يئس منهم دعا عليهم، ولكل مقام مقال، فالحال أحياناً قد يكون المناسب فيها الدعاء عليهم، وأحياناً الدعاء لهم، فقد يقول: ((اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون))[٣]، وقد يدعو عليهم ويقول: ((اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسنِيّ يوسف))[٤]، فالدعاء لهم ليس بمطرد في كل المواضع، ولا إشكال في هذا، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يقول: {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الله -تبارك وتعالى- لا يغفر للكفار، فيحمل هذا باعتبار أن المراد وجود سبب المغفرة، بأن يتوب الله عليهم، يوفقهم للتوبة فيغفر لهم، ويمكن أن يقال بأن ذلك كقوله -عليه الصلاة والسلام- لما دعا لأبيه: {وَاغْفِرْ لِأَبِي} الآية، [سورة الشعراء:٨٦] وقال: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [سورة مريم:٤٧]، و{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [سورة إبراهيم:٤١]، حتى نهاه ربه -تبارك وتعالى- عن ذلك، كما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما استأذن ربه أن يستغفر لأمه، وقال لأبي طالب: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك))[٥]، واستغفر بعض الصحابة -رضي الله عنهم- لآبائهم الذين ماتوا على الشرك احتجاجاً باستغفار إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه، فأنزل الله -عز وجل-: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[سورة التوبة:١١٣].

---

٢ - رواه مسلم برقم (٢٠٢)، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمته وبكائه شفقة عليهم.

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم}، برقم (٣٢٩٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، برقم (١٧٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه.

٤ - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، برقم (٦٠٣٠)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، برقم (٦٧٥)

٥ - رواه البخاري برقم (١٢٩٤)، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ورواه بلفظ: "مالم أُنْه عنه" برقم (٣٦٧١)، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، ومسلم برقم (٢٤)، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{رَبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}[سورة إبراهيم :٣٧].

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله -عز وجل-؛ ولهذا قال: {عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}. وقوله: {رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ} قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: {الْمُحَرَّمِ} أي: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال: "أفئدة الناس" لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: {مِنَ النَّاسِ} فاختص به المسلمون وقوله: {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ} أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك.

قوله: {رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: {الْمُحَرَّمِ}، بمعنى: أنك جعلته محرماً ليقيموا الصلاة، والاحتمال الآخر أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- جعلهم عند بيت الله المحرم ليقيموا الصلاة، يعني: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي} في هذا المكان {لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، أي: أسكنتهم ليقيموا الصلاة، والآية تحتمل المعنيين، وما ذكره ابن جرير -رحمه الله- له وجه حسن، والله -تبارك وتعالى- وصف هذا البيت بأنه محرم فقال: {سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الحـج:٢٥]، كما أن الله جعل بإزاء ذلك أوقاتاً، وهي الشهور الحرم من أجل أن يتمكن الناس من الوصول إلى البيت، فإذا نظرت إلى الأشهر الأربعة وجدت ثلاثة منها تتعلق بموسم الحج، فالناس قد يحتاجون شهراً حتى يصلوا إلى البيت، ثم يبقون في مناسكهم، ويحتاجون شهراً حتى يرجعوا، فصارت ثلاثة: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، وواحد فرد وهو رجب يأتون فيه للعمرة، فهذا في الأوقات، إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، وذلك أنه يعني كما ذكر بعض أهل العلم: أن إقامة الدين والعبادة إنما يكون ذلك مع وجود الأمن، فإذا أمن الناس تفرغوا للعبادة؛ ولهذا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فضل العبادة في أيام الهرج، كثرة الهرج، أو الهرج: بمعنى القتل، وجاء تفسيره أيضاً بالاختلاف والفتن، ولا شك أن بين الأمرين ملازمة، فإذا وقع الاختلاف والفتن فإن ذلك يؤدي إلى وقوع القتل.

وقوله: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} الأفئدة: يعني القلوب، قال: {أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ}، وهذا التفسير ذكره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد وسعيد بن جبير بأن "من" تبعيضية، {أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ}، ويمكن أن تكون بيانية، {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ}، ولم يقل: تهوي إليه، ودعا للبيت أن يكون آمناً، ومعنى: {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} أي: تنزع إليهم، وفسر ذلك أيضاً بالإسراع، أو الإقبال، أو الميل، تميل إليهم، هوى نحوه أي مال، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- في أول زاد المعاد ذكر من خصائص مكة أن الأفئدة تهوي إليها، وذلك أن الإنسان كلما رجع منها عاوده الحنين والشوق إليها مرة ثانية، فلا يزال به حتى يرجع ثانية وهكذا، فيتكرر رجوعه إليها، بخلاف سائر البلاد، وهذا المعنى الذي ذكره باعتبار أن الدعاء {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} لمكة، فقال: {تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ} باعتبار أنهم نزلوا هذا المكان، فصار ذلك مختصاً به، والله تعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ} أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل له ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا} [سورة القصص:٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل -عليه السلام-.

{رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىَ عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ * الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنّ رَبّي لَسَمِيعُ الدّعَآءِ * رَبّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصّلاَةِ وَمِن ذُرّيّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}[سورة إبراهيم:٣٨-٤١].

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: {رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ} أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه -عز وجل- على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} أي إنه يستجيب لمن دعاه.

قوله: {وَمَا يَخْفَىَ عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ} جاء متصلاً بدعاء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وجاء بعده: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} إلى آخره، فهذا في ثناياه، فهل هو من جملة قول إبراهيم ودعائه {رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىَ عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ}؟ أو أن هذا من كلام الله -عز وجل- فيكون من قبيل المتصل لفظاً، المفصول معنىً؟، ظاهره الاتصال، أنه من كلام متكلم واحد، ولكنه منفصل، هذا من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والجمهور على أن هذا من كلام الله، تعقيباً على دعاء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ} أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها، {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي: فيما سألتك فيه كله، {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبيّن له عداوته لله -عز وجل-.

قوله: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ} قال: "أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}: أي واجعلهم كذلك مقيمين لها"، {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} يمكن أن تكون "مِن" هنا تبعيضية، ويمكن أن تكون بيانية، كما في قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}[سورة آل عمران:١٠٤]، والفرق بينهما أنها إذا كانت تبعيضية فهي دعاء للبعض، وإذا كانت بيانية فإنها دعاء للجميع، مثل قول الإنسان لأولاده: أريد منكم أبناء بررة، لا يقصد أن بعضهم يكون كذلك، والتبعيضية كأن يقول: أريد منكم فقهاء، وأطباء، فهو يقصد أن بعضهم يكون هكذا وأن البعض يكون هكذا، وقوله: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} قال: "أي: فيما سألتك فيه"، فهذا من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يُعد -كما هو ظاهر- تفسيراً للدعاء بالسؤال، {وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}؛ لأنه هو يدعو، فهو يطلب من ربه أن يتقبل دعاءه أي مسألته التي سألها، تقبل دعائي، وهذا هو الظاهر المتبادر، وهذا المقام مقام طلب وسؤال، وابن جرير ذهب إلى أن المراد بـــ {وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي: تقبل عبادتي، فالدعاء يأتي بمعنى العبادة، ولا يخفى أن بين الأمرين ملازمة، فالسؤال هو عبادة من أجلّ العبادات؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذلك فإن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- عمّمه، {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي: تقبل سُؤْلي وتقبل عبادتي، {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ}، دعاء لوالديه، بعضهم يقول: إن أمه كانت مسلمة، ولا دليل عليه، وليس فيه جواب عن السؤال الذي سأله الصحابة -رضي الله عنهم- بأن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- استغفر لأبيه وهو مشرك قطعاً، فالحاصل أنه جاء في بعض القراءات غير المتواترة -قراءة سعيد بن جبير- الإفراد: {اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي}، وجاء في قراءة إبراهيم النخعي: {اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ} يعني: إسماعيل وإسحاق، وهذه قراءات شاذة، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- دعا لأبيه، ودعا لوالديه؛ وذلك قبل أن ينهاه الله -تبارك وتعالى- عن هذا، رجاء أن يفتح الله على قلوبهما فيدخلا الإسلام، والله -عز وجل- يقول: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}[سورة التوبة:١١٤].

{وَلِلْمُؤْمِنِينَ} أي: **كلهم**، {يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} أي: **يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.**

قوله: {يَقُومُ الْحِسَابُ} أي: يقوم الناس للحساب، {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة المطففين:٦]، ظاهر اللفظ واضح لا حاجة للتقدير: يوم يقوم الناس للحساب، {يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} أي: يقام الحساب والسؤال، كما هو الظاهر المتبادر.

{وَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ} [سورة إبراهيم:٤٢-٤٣].

يقول تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ} **يا محمد** {غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ} **أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عداً،** {إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} **أي: من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم.**

قوله: {لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} كقوله -عز وجل-: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الّذِينَ كَفَرُوا}[سورة الأنبياء:٩٧]، وشخوص البصر معناه: أنه يبقى البصر مفتوحاً، فلا يغمض الإنسان عينه؛ لشدة الهول.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: {مُهْطِعِينَ} **أي: مسرعين، كما قال تعالى:** {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} **الآية، وقال تعالى:** {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ} [سورة طـه:١٠٨] **إلى قوله:** {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [سورة طـه:١١١]، **وقال تعالى:** {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً} [سورة المعارج:٤٣] **الآية.**

قوله: {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [سورة القمر:٧]، فالإهطاع فسره الحافظ بالإسراع، وهذا قال به طائفة من السلف، ومن بعدهم، والشنقيطي -رحمه الله- يرجح هذا المعنى، وفُسر بغير هذا فقيل: المُهطِع: هو الذي ينظر بذل وخشوع، وقيل: المهطع هو الذي يديم النظر، {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} ينظرون إليه، لا ينظرون إلى شيء آخر، وقيل: هو الذي لا يرفع رأسه من الخضوع، وبعضهم يفسره بالساكت، {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} وتفسيره بأنه الذي لا يرفع رأسه يصير مكرراً مع قوله: {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} إذا فسر إقناع الرأس بتنكيسه وطأطأته، فيكون ذلك تكراراً، إذا فسر بهذا.

وقوله {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: رافعي رءوسهم.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} فُسر بالرفع، وفسر بطأطأة الرأس وتنكيسه، فسر بهذا وهذا، ورافعي رءوسهم ليس من العز، وإنما ينظرون إلى الداعي، قد شخصت أبصارهم.

{لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} أي: أبصارهم طائرة شاخصة يديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف؛ ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف.

إذا فسر إقناع الرأس بمعنى تنكيسه فتكون شاخصة أبصارهم {لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} يعني ينظرون إلى الأرض بصورة قد شخصت فيها أبصارهم، أو أنهم قد رفعوا أبصارهم إلى الداعي ينظرون إليه نظراً مستمراً، والثاني هو الأقرب، -والله أعلم-.

وقوله: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}، العرب تقول للشيء الفارغ: أجوف، ويقولون: هواء، كما قال حسان -رضي الله عنه- حينما هجا أبا سفيان بن الحارث:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عني *** فأنتَ مجوفٌ نخبٌ هواءُ[٦]

يعني يتهمه بالجبن والخور والضعف، فيكون قلبه هواء، كما يقال في الحرب أو الخوف: انتفخ سحره، والعرب تعبر بذلك يقولون: إن الرئة تنتفخ مع الخوف، وذكره بعضهم عند قوله تعالى: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} [سورة الأحزاب:١٠]، بعضهم حملوه على ظاهره، قالوا: وصل القلب إلى هذا المكان، والعرب تعبر بمثل هذا عن الخوف أو عن فراغ القلب من كل شيء، والله -عز وجل- قال عن أم موسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} [سورة القصص:١٠] مع الفارق بين الموضعين، {فَارِغًا} قالوا: أي من كل شيء إلا من ذكر موسى -عليه الصلاة والسلام-، والقصد أنه عبر عن الفؤاد بالفراغ، فقال: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} أي: أن قلوبهم خالية، فلا تفسر بأنها ارتفعت إلى أعلى المكان؛ لأنه قال عن نفس الأفئدة: إنها هواء، فدل على أن هذه القلوب قد امتلأت بالخوف، فما عاد أصحابها يعقلون شيئاً، ولهذا وصفهم الله -تبارك وتعالى- في موضع آخر بالسكر، {سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى} [سورة الحج:٢]، فلا يعقل شيئاً من شدة الهول الذي رآه أو نزل به، والمعنى الظاهر والمتبادر والذي عليه المحققون أن قلوبهم خالية ليس فيها شيء، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ولا حاجة لأن يقال: إن قلوبهم لما وصلت الحناجر صارت هواء بهذا الاعتبار.

ثم قال تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[سورة إبراهيم:٤٤-٤٦].

---

٦ - المستقصى في أمثال العرب لأبي القاسم الزمخشري (٣٨٦/١)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط٢، سنة النشر: ١٩٨٧م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: {رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} كقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ} [سورة المؤمنون:٩٩] الآية، وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ} [سورة المنافقون:٩، ١٠] الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ} [سورة السجدة:١٢] الآية، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [سورة الأنعام:٢٧] الآية، وقال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} [سورة فاطر:٣٧] الآية، قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره: {مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [سورة النحل:٣٨] الآية، {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ}[سورة القمر:٥].

قوله: {وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ} المكر معروف، وفسره بعضهم بجزاء مكرهم، {وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ} قالوا: أي عند الله جزاء مكرهم، أو أنه مكتوب عنده فيجازيهم عليه، وبعضهم يقول: {وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ} أي: عند الله مكرهم الذي يمكرهم به، والأول هو المتبادر، -والله تعالى أعلم-، والمقصود بالمكر -والله أعلم- هو ما حصل منهم من التكذيب والسعي في الصد عن سبيل الله -عز وجل-، وإطفاء نوره، كما قال الله -عز وجل-: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [سورة الأنفال:٣٠]، {قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [سورة يونس:٢١].

وقد روى شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن دابيل أن علياً -رضي الله تعالى عنه- قال في هذه الآية {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} قال: أخذ ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه نسريْن صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا، قال: فأوثق رِجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت وجوّعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: -ورفع في التابوت عصاً على رأسه اللحم- فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب، قال: فصوِّب العصا، فصوبها فهبطا جميعاً، قال: فهو قوله -عز وجل-: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}.

قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: {وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ}.

هذه القراءة مروية عن بعض الصحابة كعمر وأبيّ {وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، وهذه الرواية لعلها مأخوذة من الإسرائيليات، ولا شك أن فيها من الغرابة ما فيها، توضيح هذه الرواية: أن هذا النمرود جاء إلى نسور صغار فرباها، حتى قويت واشتدت، فجلس هو ورجل في تابوت وأوثق كل نسر على ناحية، ثم رفع عصا فيها لحم وهذه النسور مجوعة، فصارت تحاول الطيران من أجل أن تصل إلى هذا اللحم، فارتفع التابوت، حركت أجنحتها فارتفع التابوت، وفيه هؤلاء، ووصلوا إلى مكان مرتفع جداً فصاروا ينظرون إلى الجبال كما في بعض الروايات يقول: أرى الجبال كالذباب، يعني صغيرة جداً كما نرى في الطائرة، وقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرى الدنيا كالذباب، ثم بعد ذلك قال: صوِّب العصا، نزلْها، فنزلَها فصارت هذه النسور تتبع العصا، وصار لها جلبة قوية كادت الجبال أن تندك. فهذه الراوية فيها من الغرابة مافيها من أنها:

أولاً: النسور لا تستطيع أن تحمل تابوتاً فيه رجلان.

ثانياً: هذه النسور مُجوّعة، لا تستطيع مع ضعفها والجهد الذي بلغ بها من الجوع أن تواصل حتى تصل إلى هذا المكان العالي جداً في الارتفاع، وهي محملة بشيء ثقيل.

ثالثاً: أنه لما صوّب العصا ونزلها، نزلت النسور بسرعة ولم يحصل لهم أي شيء.

رابعاً: النمرود ملك عظيم جداً، فلا يصل به الأمر إلى أنه يخاطر ويركب في تابوت مربوط بنسرين ويطير مثل المجنون، ويخاطر بملكه، وكان بإمكانه أن يربط عبداً من عبيده أو أحد أتباعه ويضعه في التابوت، فهذه كلها وجوه للرد، وأن الإنسان لا يمكن أن يقبل مثل هذه المبالغات، وعلى هذه القراءة {وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، يعني: هذا لبيان شدة المكر أنه كادت الجبال تزول منه، وعلى هذه الرواية التي ذكرها أصلاً لا يصنع خفقان النسرين بالنسبة للجبال شيئاً، وعلى هذه القراءة {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ} لبيان شدة مكرهم، ويقال: حتى في هذه القراءة المشهورة {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، فسر {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ} يعني: لشدته {لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، يعني مكروا مكراً شديداً من شأنه أن يزيل الجبال لو وُجه إليها، وهذا هو المتبادر، يعني من شدة مكرهم، فإنه مكر كُبَّار عظيم يزيل الجبال، والعرب تعبر بمثل هذا، والله -عز وجل- يقول: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} [سورة مريم:٨٩-٩٠]، فالكفر يقال عنه مثل هذا والكيد والمكر الشديد، هذا معنى، والمعنى الثاني يقابله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، باعتبار أن "إن" هنا نافية بمعنى "ما"، {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ}أي: وما كان مكرهم لتزول منه، مكرهم ليس بشيء، لا قيمة له، عكس المعنى الأول.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بُخْتنصَّر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه، فصوّب الرماح فصوّبت النسور.

ففزعت الجبال من هدتها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}.

ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها: {لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ} بفتح اللام الأولى وضم الثانية.

{لَتَزُولُ}، وهي قراءة الكسائي.

وروى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم، قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} يقول: شركهم، كقوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ} الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي شركهم، كقوله**: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ}"، أي شركهم، فيحتمل أن تكون "إن" هذه مخففة من الثقيلة، بمعنى أنها ليست نافية، {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، ويكون هذا بياناً لشدة مكرهم، أنه كاد يزيل، أو من شأنه أن يزيل الجبال، يعني يبلغ الكيد إلى حد أنه لو وُجه إلى جبل لأزاله، والمقصود بمكرهم هو افتراؤهم على الله، وحربهم لرسله -عليهم الصلاة والسلام-، وشركهم بالله -عز وجل-.

لكن كلام ابن جرير يوجه الآية ويفسرها باعتبار أن ذلك لبيان ضعف أثر مكرهم، فلا يضرون إلا أنفسهم، وما يضرون الله شيئاً، ومكرهم لا أثر له، والله -تبارك وتعالى- يبطله، فمكرهم ماذا سيصنع؟ لن يزيل الجبال، تحقيراً لهم ولما يبذلون، كالذي ينفخ على الشمس من أجل إطفائها، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [سورة الصف:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة إبراهيم (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم(٤٧-٤٨)].

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: {فَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}، ولهذا قال: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيّ ليس فيها معلم لأحد))[١].

وروى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن هذه الآية {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [(٤٨) سورة إبراهيم] قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: ((على الصراط))[٢]. رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: إن ثوبان -رضي الله تعالى عنه- مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حدثه قال: كنت قائماً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن اسمي محمدٌ الذي سماني به أهلي)) فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أينفعك شيءٌ إن حدثتك؟)) قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعود معه فقال: ((سل)) فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هم في الظلمة دون الجسر)) قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: ((فقراء المهاجرين))، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: ((زيادة كبد النون)) قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: ((ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها)) قال: فما شرابهم عليه؟ قال: ((من عين فيها تسمى

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٥ / ٢٣٩٠)، برقم (٦١٥٦)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٤ / ٢١٥٠)، برقم (٢٧٩٠).

[٢] - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٤/٢١٥٠)، برقم (٢٧٩١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سلسبيلاً))، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: ((أينفعك إن حدثتك؟)) قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد، قال: ((ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة، أذْكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل، أنّثا بإذن الله)) قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به))[٣].

وقوله: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ} أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله، {الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأورد ابن كثير –رحمه الله– في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة إبراهيم (٤٨)] حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-: ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي))، والمقصود بقرصة النقي، أي: الدقيق الأبيض الذي يقال له: الحواري.

ومعنى التبديل في قوله –تبارك وتعالى- {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} أي: تبديل الذات، فتبدل أرضاً أخرى غير هذه الأرض، ويحتمل أن يكون معنى التبديل من قبيل تبديل الصفات، وهذا عليه أكثر العلماء، والآية تحتمل المعنيين، وقد أخبر الله -تبارك وتعالى- عن تسيير الجبال، وبروز الناس لرب الناس، فإذا تأمل الإنسان النصوص في هذا الباب يجد أن المقصود بالتبديل هو تبديل الصفات.

وقول النبي –صلى الله عليه وسلم– ((هم في الظلمة دون الجسر)) يَحتمِل احتمالاً قوياً أن المقصود بالتبديل هو تبديل الذات، مع أنه لا يمتنع أن يكون المقصود به تبديل الصفات، وعندئذ يُنقلون منها، والله تعالى أعلم.

قوله: ((زيادة كبد النون)) يعني: الحوت.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل...))، يثبت أن الإنسان يخلق من مجموع الماءين، وقد قال الله –تبارك وتعالى-: {فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق:٥-٧]، وقد قال كثير من أهل العلم: إن خلْق الإنسان هو من صلب الرجل وترائب المرأة وهو عظام الصدر، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شبه الولد لأمه، فعن أم سلمة -رضي الله عنها- أن أم سليم قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟، قال: ((نعم إذا رأت الماء)) فضحكت أم سلمة، فقالت: أتحتلم المرأة؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم – ((فبم شبه الولد؟))[٤].

---

[٣] - رواه مسلم، كتاب الحيض باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (١ / ٢٥٢)، برقم (٣١٥).

[٤] - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك وقالت فاطمة -عليها السلام- أسر إلي النبي -صلى الله عليه وسلم- فضحكت وقال بن عباس إن الله هو أضحك وأبكى (٥/٢٢٦٠)، برقم (٥٧٤٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعجيب أن الأطباء المعاصرين إلى الآن ما توصلوا إلى أن الولد يخلق من ماء الرجل وماء المرأة، ويقولون: إن المرأة ليس لها ماء أصلاً، وغاية ما هنالك أن الحيوان المنوي يلقح البويضة، وليس هناك علاقة بين ماء المرأة وماء الرجل.

قوله: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم(٤٩-٥١)].

يقول تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم {مُّقَرَّنِينَ} أي: بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات(٢٢)] وقال: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير(٧)]، وقال: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان(١٣)]، وقال: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [ص(٣٧-٣٨)] والأصفاد هي القيود، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة.

وكان ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: القطران هنا النحاس المذاب، وربما قرأها {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرٍ آنٍ} أي: من نحاس حار قد انتهى حره، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ} [إبراهيم:٤٩] يحتمل أن يكون المعنى أن المجرم يقرن بغيره من المجرمين، وهذا هو قول العلامة ابن كثير -رحمه الله-، ويحتمل أن يكون المعنى أن المجرم قرن وربطت يداه إلى رجليه.

وقوله: {سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ} [إبراهيم(٥٠)] أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل، أي: تطلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار.

يحتمل أن تكون كلمة "قطران" كلمة واحدة، وهو القطران المعروف الذي تطلى به الإبل، ويحتمل أن تكون كلمتين "قطر" و"آن" أي: حار، والمقصود به النحاس المذاب الحار، وهذا مثال على أحد الأسباب التي جعلت العلماء -رحمهم الله- يختلفون في عد كلمات القرآن.

وقوله: {وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} كقوله: {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}، وقال الإمام أحمد -رحمه الله-: حدثنا يحيى بن إسحاق قال: أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب))[٥]. انفرد بإخراجه مسلم.

---

[٥] - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (٢ / ٦٤٤)، برقم (٩٣٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {لِيَجْزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} [إبراهيم(٥١)] أي: يوم القيامة كما قال: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا} [النجم(٣١)] الآية، {إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم(٥١)] أي: في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان(٢٨)]، وهذا معنى قول مجاهد: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} إحصاءً.

قوله: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} مع كثرة الخلق، فإن الله –عز وجل– سريع في محاسبتهم، فلا يطول الحساب بسبب كثرة الخلائق، فالله -تبارك وتعالى- علمه محيط، وهو على كل شيء قدير، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق.

قوله: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [إبراهيم(٥٢)]، يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [الأنعام (١٩)] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: {الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم(١)].

{وَلِيُنذَرُواْ بِهِ} أي: ليتعظوا به، {وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو {وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} أي: ذوي العقول.

قوله: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ} أي: هذا القرآن، وهو اختيار ابن كثير وابن جرير والشنقيطي وغيره من أهل العلم، وقال بعضهم: هذه السورة، وقال بعضهم: هذا المقطع من السورة، من قوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم(٤٢)] إلى قوله: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com